انطلق يا أخي من استعباد ذاتك لك

لأنك إن وصلت إلى اتفاق مع نفسك، وتتحرر من الداخل،

فلن تستطيع كل الظروف المحيطة

أن تؤثر عليك، إذ تكون قد وصلت إلى:

انطلاق الروح[1]

هل تحسب يا أخي الحبيب أن العالم له سلطان عليك؟ وهل تظن أن العثرات والمغريات هي السبب في سقوطك؟ كلا. تخطئ كثيرًا إن ظننت شيئًا من هذا. فقد يكون للعالم أو مغرياته بعض التدخل، ولكن السبب الأساسي الحقيقي لسقوطك هو ذاتك من الداخل.

لو لم تكن قابلًا للخطية، مرحبًا بها، أو محبًا لها، لو لم تكن هكذا ما سقطت.

لقد كان يوسف الصديق يعيش في جو مشبع بالخطية، وقد أحاطت الخطية بيوسف في عنف، ولكنه لم يسقط؛ لأن كل الاغراءات لم تستطع أن تدخل إلى قلبه النقي. فانتصر على الخارج كله؛ لأنه كان منتصرًا في الداخل.

لا تقل إني سقطت لأن العالم مليء بالمغريات، ولكن الأصح أن تقول: إنك سقطت لأن في قلبك حنينًا إلى تلك المغريات وقبولًا لها.

اثنان يمران في الطريق على حانة، فلا يستطيع أحدهما أن يقاوم منظر زجاجات الخمر المعروضة، فيدخل ويشرب ويسكر، وأما الآخر فيمر على الحانة دون أن يشعر بوجودها أو بوجود الخمر فيها. لا يراها معثرة، ولا تترك في نفسه أثرًا، ولا تعزيه لسبب واحد: وهو أن قلبه خالٍ من الحنين إلى الخمر، خالٍ من محبتها. قلبه نقي من الداخل لا تقوى عليه المؤثرات الخارجية.

انتصارك إذن في حياتك الروحية يتوقف على عامل حيوي، وهو نتيجة المعركة الداخلية بينك وبين نفسك. إن استطعت أن تصلب ذاتك في داخلك، ستخرج إلى العالم الخارجي بتلك العين البسيطة التي ترى الخير في كل شيء، والجمال في كل شيء، وكما يقول الرسول: "كُلُّ شَيْءٍ طَاهِرٌ لِلطَّاهِرِينَ" (تي١: ١٥).

بعض الناس يتحاشون الأوساط الخارجية المعثرة، وهذا حسن وواجب؛ لأن الله منعنا عن مجالس المستهزئين وطريق الخطاة. ولكن الخطأ هو أن هؤلاء البعض يكتفون بتحاشي الأوساط الخارجية، تاركين الحيوان الرابض في أحشائهم كما هو في شهوته للعالم والأشياء التي في العالم. أمثال هؤلاء قد يصادفهم النجاح بعض الوقت، ولكن ما أسرع ما يسقطون عندما تضغط عليهم التجربة وتُفحم الإغراءات ذاتها في حياتهم! هؤلاء يحبون الخطية وإن كانوا لا يفعلونها، والشخص الذي يحب الخطية لا بد سيسقط فيها –ولو بعد حين– مهما تحاشاها.

---

[1] الأستاذ نظير جيد "انطلاق الروح"، مجلة مدارس الأحد، السنة السابعة، العدد العاشر، ديسمبر ١٩٥٣م.

أمثال هؤلاء يبتعدون عن الشر، ولكنهم يعتقدون في نفس الوقت أن عملهم هذا تضحية منهم في سبيل الله. إنهم – كالخطاة تمامًا – ما زالوا يعتقدون أن الشر لذيذ، والخطية حلوة مشتهاه، وما زالوا ينظرون إلى الشجرة فيجدونها جيدة للأكل، وبهجة للعيون، وشهية للنظر، ولكنهم يفترقون في أمر واحد، وهو أنهم لا يمدون أيديهم ليقطفوا. إنهم لم ينتصروا في الداخل، ولم يسكن الله في قلوبهم، لذلك فهناك في العالم ما يغريهم وما يعثرهم؛ ففيه الخطية المحبوبة التي يشتاقون إليها، ولكنهم يهربون منها خوف السقوط فيها. أستطيع أن أقول إن هؤلاء –من ناحية الفعل– يطيعون وصايا الله، وإن كانوا لا يحبونها ولا يحبونه.

مثل هذا النوع إذا استمر في جهاده قد يخلص كما بنار، وقد لا يستطيع أن يستمر في الجهاد فيسقط ويكون سقوطه عظيمًا؛ لأن بيته ليس مؤسسًا على الصخر. أما الوضع الصحيح الذي يكون فيه الروح منطلقًا، فهو عدم الاستعباد للخطية وعدم محبتها، حيث يكون الإنسان حرًا من تأثير الشر عليه. (فالمغريات) في نظر غيره ليست هكذا بالنسبة إليه؛ لأنها لا تغريه، بل على العكس هو لا يتفق معها بطبيعته المقدسة، لذلك فهو لا يتجاوب معها، بل ينفر منها دون جهاد ودون تعب، إذ قد ترك هذا الجهاد السلبي، وأصبح جهاده سعيًا في سبيل التعمق في الروح وفي معرفة الله.

ولكن الإنسان –كما قلنا– لا يمكن أن يصل إلى هذه الحالة ما لم يتنقَّ من الداخل، وينتصر في حربه مع نفسه التي تشتهي ضد الروح. على الإنسان أن يصل مع نفسه إلى اقتناع أكيد بمرارة الخطية وبشاعتها، وبحلاوة الله ومتعة الحياة معه.

وفي هذه الحرب الداخلية "يقمع الإنسان جسده ويستعبده" (١كو٩: ٢٧). بل يصلب في ذاته وشهواته. لا يقيدها ويتركها تصرخ، فتُحنِّن قلبه بصراخها ورعودها. وإنما ينظر إليها بمنظار الله، فيجدها حقيرة لا تستحق شيئًا، فينفر منها... وهكذا يقول مع الرسول: "مَعَ الْمَسِيحِ صُلِبْتُ، فَأَحْيَا لَا أَنَا، بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ" (غل٢: ٢٠). ألست ترى أن هذا بعضًا مما يقوله السيد المسيح: "مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي يَجِدُهَا" (مر٨: ٣٥).

ولكن هذا الأمر لا يمكن أن يتم بدون معونة خاصة من الله، لذلك فالجهاد مع النفس لا بد أن يصحبه جهاد مع الله. جاهد يا أخي معه في ضراعة، مرددًا قول إسرائيل البار: "لَا أُطْلِقُكَ حَتَّى تُبَارِكَنِي" (تك٣٢: ٢٦). قل له أيضًا: "تَنْضَحُ عَلَيَّ بِزُوفَاكَ فَأَطْهُرُ، تَغْسِلُنِي فَأَبْيَضُّ أَكْثَرَ مِنَ الثَّلْجِ" (مز٥١: ٧). وثق أنك إذا خرجت من هذه الحرب منتصرًا، فمن المحال أن تقوى عليك كل قوى الشر ولو اجتمعت.

ولكنك ترى يا أخي الحبيب أن كل هذا يحتاج إلى الخلوة، ومن هنا كانت الخلوة عنصرًا أساسيًا في حياة أولاد الله. استطاعوا بها أن يجلسوا إلى نفوسهم، وأن يجلسوا إلى خالقهم، وأن يخرجوا من هذا وذاك بأسلحة متجددة تعينهم في حياتهم الروحية، وتدفعهم باستمرار إلى العمق.

انظر إلى حياتك جيدًا وتأملها في صراحة، فربما كان أسباب سقوطها افتقارها إلى الخلوة.

إن الشخص الذي لم يختبر هذه الخلوة هو شخص لا يعرف نفسه على حقيقتها، وهو شخص في أغلب الأحوال يجرفه التيار فلا يعلم إلى أين يذهب. إنه غالبًا يفكر بعقلية الجماعة ويسير على هداها، فينحدر ويظل في انحداره حتى يخلو إلى نفسه فيحس أنه ساقط.

أما أنت فلا تكن هذا الشخص. حدد لنفسك أوقاتًا مقدسة تراجع فيها سيرتك، وتتذكر فيها المبادئ السامية التي اقتنعت بها منذ زمان، وتسترجع أمامك حياة المنتصرين من أولاد الله، وتُغذي نفسك بكلام الله وأقوال الآباء وسيرهم، وتسكب نفسك أمامه في حرارة وعمق. تأخذ منه خبزك اليومي الذي لا غنى لنفسك عنه.

الله معك يقويك، ويهبك القداسة التي من عنده، ويغفر لنا خطايانا.